التقدم و الرجعية

بقلم الدكتور تقي الدين الهلالي

محاضرة القاها فضيلة الدكتور على طلبة الجامعة الاسلامية وجمع غفير من الزوار فى الموسم الثقافى الماضى :

هاتان الكلمتان لم تكن تستعملهما العرب بهذا المعنى الذي يقصده بهما كتاب العصر الحاضر ، لأنهما مما ترجمه المترجمون باللغة العربية ناقلين له من اللغات الأوروبية فتلقاه كتّاب العربية واستعملوه في كلامهم وكتبهم .

والرجعية نسبة إلى الرجع وهو مصدر رجع يرجع رجعا أي عاد إلى مكانه الذي كان فيه ، أو إلى حال كان فيها ، وفعله بهذا المعنى لازم .

قال ابن منظور في لسان العرب ومصدره لازماً ، الرجوع ومصدره واقعاً ، الرجع يقال رجعته رجعاً فرجع رجوعاً . ا ـ هـ

والرجعية عند المعاصرين صفة الرجعي الذي يرجع في أفكاره وعقائده إلى الزمان الماضي وهو زمن الإنحطاط والجهل ، والظلم والإستئثار ، والإصرار على الخرافات والأوهام ، التي انقشع الظلام فيها عن بصائر المتقدمين والمتمدنين السائرين حثيثاً في ركب الحضارة الطالبين للحقيقة لا يمنعهم منها مانع ، من عقيدة أو عادة يتعصب الرجعيون لها ، فهم أعني المتقدمين — دائماً في طليعة هذا الركب ، أغنياء أقوياء سعداء علماء ، سائرون إلى الأمام متعاونون مع الشعوب التقدمية ينظرون إلى آبائهم وأسلافهم نظرة ازدراء أو رحمة وشفقة ويسخرون منهم كلما ذكروا أحوالهم .

ينبغي أن نذكر هنا كيف كانت الحال قبل النهضة ليعرف فضلها ، ويتبين لكل ذي عينين الفرق الشاسع بين التقدميين والرجعيين الذين يصرون على تقديس العصور المظلمة على حد تعبير خصومهم .

قال جوزيف مكيب في كتابه (مدنية العرب في الأندلس) وقــد ترجمته وعلقت عليه وطبع في بغداد سنة ١٣٦٩ هـ ١٩٥٠ م وسبب ترجمتي له أني كنت في غرناطة أثناء الحرب العالمية الأخيرة لأن الفرنسيين نفوني من الأراضي المغربية التي كانت تحت أيديهم وهي القسم الأكبر ، والقسم الذي كان بيد الإسبانيين كان ممتداً على شاطىء البحر الأبيض لا يزيد عرضه على (٥٠ ميلاً) وكنت ولا أزال مصاباً بداء الربو أحتاج إلى البعد عن البحر .

وكان الطلبة المغاربة الذين يدرسون في جامعة غرناطة ملتفين حــولي ، مترددين على زيارتي ، وكان الأساتذة الإسبانيون الذين يعلمونهم لا ذمة لهم ولا أمانة ، وذلك شأن أكثر الأساتذة في البلاد التي تنعدم فيها الحرية ويسود فيها الإستبداد ، فكانوا يفترون على التاريخ ويزعمون أن المسلمين الفاتحين للأندلس من الشرقيين والمغربيين كانوا سيىء الأخلاق جهالاً عُتاةً وكان حكمهم جائراً قاسياً ، فمحوا كل خلق كريم من الشعب الإسباني وعلموه مساوىء الأخلاق ، فكل خلق سيء مرذول يوجد في الشعب الإسباني هو من آثار الحكام المسلمين ، وكنت قد اطّلعت على كتابين ألفهما في تاريخ المسلمين في اسبانيا المؤلـف الإنكليزي الشهير الذائــع الصيت (جوزيف مكيب) أحدهما كبير والآخر صغير فعمدت إلى الصغير فترجمته بالعربية ليكون سلاحاً بيد الطلبة المغاربة وغيرهم من المسلمين يواجهون به كل عدو جاحد مكابر .

وهذا المؤلف عدو للأديان كلها وقد ذكرت له ترجمة واسعة في أول الكتاب إلا أن طعنه في الإسلام أقل وأخف من طعنه في النصرانية ، لأن علماء شعبه الذين يرد عليهم من الإنكليز وسائر الأوروبيين كلهم نصارى وقد استثقل تفاحش قوله وشتائمه للنصارى ولكني أضطر إلى نقلها إذا كانت ممزوجة

مع اعترافه بفضل المسلمين ، وسبب هذا الإستثقال حب الإقتداء بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم فإنه لم يكن طعاناً ولا لعاناً ولا فاحشاً ولا متفحشاً ، ولمّا طبع هذا الكتاب ووصلت نسخ منه إلى تطوان في زمن الإستعمار الإسباني صادر الحكام الإسبانيون تلك النسخ وزجوا بالكتبي الذي كان يبيعها في السجن ، وليس ذلك بعيداً من أخلاقهم وقد حبسوني أنا بنفسي قبل أن ينشر الكتاب . وقبل أن يعلموا بوجوده وكان ذلك تهوراً منهم وطغياناً لوساوس كان شيطانهم يوسوس لهم بها ولمقالات كنت بعثتها في البريد الإنكليزي بتطوان إلى الأستاذ المجاهد الشهيد الشيخ حسن البنا رحمة الله عليه ، فقد اطّلعوا عليها بواسطة بعض الموظفين المغاربة في البريد الإنكليزي ثم أنقذني الله منهم ، وأنقذ ذلك الجزء من المغرب من حكمهم ونسأله سبحانه أن ينقذ الباقي وهو (سبتة ، ومليلية ، ووادي الذهب ، والصحراء المغربية ، والساقية الحمراء) ويوفق المغاربة لغسل هذا العار إنه على كل شيء قدير .

قال جوزيف مكيب في كتابه مدنية العرب في الأندلس :

الفصل الأول

لقد أطلقت لفظ العصور المظلمة كسائر المؤرخين في (تويليفي) هذا على أكثر عصور الممالك النصرانية انحاطاً على العموم ، وخصوصاً القرن العاشر المسيحي . تنصرت الممالك الأوروبية قبل ذلك بخمسة قرون أو ستة قرون تقريباً مضت من يوم تغلب البوابي — جمع بابا — والأساقفة على إرادة الملوك ، وحثوهم على إبادة كل مصدر من مصادر الإلهام يخالفهم ، فأغلقوا المدارس والمعاهد وقضوا على العلم والأدب .

وإذا استثنينا بعض المواضع في أوروبا كالبندقية إذ كان فيها بقية تافهة اصطلاحية من علم اليونانيين يخفف من شرهم وهمجيتهم فإن أوروبا كلها كانت في تباب وخراب اقتصادياً واجتماعياً وعقلياً ، وكان ذلك العهد أشد سواداً وظلمة وانحطاطاً من سائر العصور البابوية وفي ذلك الزمان أطلق الأساقفة والقسيسون والرهبان والراهبات الأعنة في الدعارة والشهوات البهمية ، ولم يكونوا في ذلك الزمان

يستترون حتى بجلباب النفاق ولو أن غنياً مليونياً من أهل هذا العصر كان في ذلك الزمان لقدر أن يشتري مملكة بأسرها وكان تسعة وتسعون في المائة خدماً يعاملون بأقسى ما يعامل بـه العبيد ولم يكن ولا واحد في المائة من الرجال ولا واحدة في الألف من النساء تقدر على القراءة ، وكان الضعيف مضطهداً مقهوراً مسحوقاً تحت الأقدام مغموساً في الطين والدم ، بل حتى القوي كان مهدداً بالأوبئة الوافدة والسيوف اللامعة على الدوام والنجوم ذوات الأذناب في السماء وجنود العفاريت الهائلة في الهواء ، كذلك إن أردت أن تعرف أفكار النصرانية الإجتماعية فادرس القرن العاشر ، فلا زخارف أقوال الواعظين ولا كذب المعتذرين ولا الإذعان السياسي من المؤرخين يقدر أن يخفي عن ذوي الألباب عظم تبعة الكنيسة ، ولا سيما البابوية في ذلك الزمان الذي بلغ فيه الإنحطاط إلى دركة لا نظير لها . وانه لفصل من أشد الفصول البشرية شقاء وحزناً من الفصول التي استشهدت فيها الإنسانية ، وانه لأفظع فصل من فصول غضب الله. حقاً لقد حطّم (بولوس) من ناحية و (اكستين) من ناحية أخرى مدنية الإنسان . فهل هذا هو الذي سمياه — بعيدين عن اتباع الهوى — (مدينة الله) .

يقصد المؤلف بهذا الكلام رجلين على يديهما انتشرت النصرانية المحرفة التي يعزو إليها المؤلف كل ما أصاب الناس من الشقاء وينبغي أن أذكر للمستمعين الكرام ترجمتي هذين الرجلين باختصار .

أما بولوس ويسميه الأوروبيون (بول الرسول) وتعده الكنيسة من الرسل الإثني عشر من أصحاب عيسى عليه السلام. وكان برلس يهودياً يونانياً وُلد في طرسوس ولا يُعرف بالتحقيق تاريخ ولادته ، وقد خمن المؤرخون أن يكون قد ولد سنة عشر للميلاد وكان عالماً بعلوم اليونانيين واليهود ، وكان يعد من فقهاء اليهود وكان شديد العداوة لكل من آمن بالمسيح محرضاً على قتلهم ، ولمّا كان في نحو الثلاثين من عمره ادعى أنه رأى رؤيا تدل على أن النصرانية حق فصار نصرانياً متعصباً ، وبعد ما قضى بولوس بقية عمره أي خمساً وثلاثين سنة في حل وترحال ، مطوفاً في أقطار آسيا الصغرى وأوروبا في البر والبحر يدعو الناس إلى النصرانية ويخبرهم بأن الله أمره بذلك ، ويبني الكنائس ويؤسس الجماعات ويركب الأخطار

وأعداؤه من اليهود الحاقدين عليه والنصارى الحاسدين له ينصبون لـه الشباك ويكيدون له المكائد ، وقد سجن مراراً وقتل في رومية سنة ٦٥ بتاريخ النصارى . وله مؤلفات كثيرة ورسائله معروفة مقدسة عند النصارى .

وأمـا أوكستين ويسمى باللاتينية (أغسطونيوس) فقد ولد في تاغستة وهي بليدة من توميديا في افريقية غير بعيدة عن قرطجنة وهي في هذه الأيام من أعمال تونس في ١٣ من تشرين الثاني سنة ٣٥٤ وتوفي في ١٨ آب سنة ٤٣٠ بتاريخ النصارى ، وكان أبوه وثنياً وأمه نصرانية متعصبة وكان في أول أمره بعيداً عن التديّن والصلاح ثم اشتغل بدراسة الفلسفة ولما بلغ من عمره ٢٩ سنة انتقل إلى إيطاليا فاجتمع بالعلماء ثم دخل في النصرانية بإلحاح من أمه وألّف كتاباً سمّاه (الإعترافات) ذكر فيه سيرته قبل التديّن بالنصرانية وبعده ، ثم رجع إلى بلاده تاغستة ثم أخذ يعظ في الكنيسة إلى أن صار أسقفاً وبقي فيها ٣٥ سنة وألف تآليف كثيرة في الديانة النصرانية ، منها تفسير الزبور ، ومنها حواش على الأناجيل الأربعة ، وله كتابان آخران أحدهما كتاب الإعترافات وقد تقدّم ذكره ، والثاني مدينة الله وإليه أشار جوزيف مكيب الذي ترجمت كتابه وسميته مدنية العرب في الأندلس ، ومقصوده بهذا الكتاب الرد على الوثنيين الذين يعبدون الأوثان ، والأصنام ودعوتهم إلى الدخول في مدينة الله بإيمانهم بدين النصارى الذي يقصر العبادة على ثلاثة أقانيم فقط . أولها الأب ، وثانيها الإبن ، وهو عيسى عليه السلام ، وثالثها روح القدس وهو قد يظهر في بعض الأحيان على شكل حمامة أو غيرها ، يقول كاتب هذه المحاضرة وليت شعري ما الفرق بين عبادة الأوثان والأصنام وبين عبادة الأقانيم الثلاثة ؟ صدق الله العظيم (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلاّ إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ، ما المسيح ابن مريم إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام أنظر كيف نبين لهم الآيات ثم أنظر أنى يؤفكون ، قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم) سورة المائدة .

ثم قال جوزيف مكيب في وصف انحطاط الأوروبيين قبل فتح المسلمين للأندلس وبعده بزمن طويل :

(اعلم أن أمهات المدن الأوروبية لم توجد فيها قنوات لصرف المياه القذرة حتى بعد مضي ستمائة سنة من ذلك التاريخ أي من سنة ٧٥٦ – ١٣٥٦ م فكانت المياه المنتنة النجسة تجري في طول شوارع باريس ولندن، يضاف إلى ذلك أنها لم تكن مبلطة أو تجتمع فيتكون منها برك حتى بعد ما عملت النهضة في أوروبا عملها قروناً طوالاً أما في مدن المور فكانت الشوارع مبلطة منورة قد سويت فيها مجاري المياه أحسن تسوية في أواسط القرن العاشر، قال سكوت: بعض القنوات التي كانت تحت الشوارع لصرف المياه القذرة في بلنسية تقدر أن تكتسح سيارة، وأصغر قناة منهن تقدر أن تكتسح حماراً ووكانت الشوارع مجهزة أحسن تجهيز بالشرطة. وهذا النظام الصحي السامي كانت تعضده النظافة العامة التي يراها الأميركيون في هذه العصور شيئاً واجباً ولكنها في ذلك الزمن كانت في نظر الأوروبيين أعجوبة من أعاجيب الرقي التام فكان في قرطبة وحدها تسعمائة حمام عام وكانت الحمامات الخاصة كثيرة في كل مكان، أما في بقية بلاد أوروبا فلم يكن فيها ولا حمام واحد، وكان أشراف أوروبا ورؤساء الإقطاع منهمكين في الرذائل إلى حد يُحجم الإنسان عن وصفه ولم يكن لبس الكتان معروفاً في أوروبا حتى أخذت (موضة) أي طراز لبس الكتان النظيف من المحمديين ولم تكن الزرابي أيضاً تصنع هناك، وكان الحشيش يغطي أرض قصور الأمراء ومصطبات الخطابة في المدارس وكان الناس والكلاب ينجسون المحلات إلى حد يعجز عنه الوصف ولم يكن لأحد منهم منديل في جيبه، وفي ذلك الوقت لم تكن الحدائق تخطر ببال أحد من أهل الممالك النصرانية، ولكن في اسبانيا العربية كان الناس من جميع الطبقات يبذلون الجهود والأموال في تجميل حدائقهم العطرة البهية، وكانت الفسقيات ترقرق مياهها صُعُداً في صحون الدور والقصور والأماكن العامة ولا يزال في صحن الجامع الكبير في قرطبة حوضان كبيران جميلان من مرمر يزينان ذلك الصحن، حيث كان كل مصل يتوضأ قبل أن يدخل إلى المسجد، ووصفهما (سكوت) في في هذا الزمان فقال: هذان الحوضان اللذان كانا من قبل متوضأ للمسلمين الغيورين من جميع الآفاق والآن يمدان بالماء سكان قرطبة النصارى ذوي المناظر القذرة والأخلاق السبعية والجهل العظيم

بمزايا الشعب الطاهر العاقل المهذب الذي تنتمي إليه الذكريات الفاخرة من الفن والصناعة هذان الحوضان يشهدان شهادة مرضية بأن لا دوام للمدنية العليا ، وأن الإنسان دائماً يميل بطبعه إلى التقهقر والرجوع إلى أحوال الهمجية ويشهدان بما لسلطة القسيسين من المقدرة على فعل الشر ، وأن سياستهم التي لن تجد لها تبديلاً أسست على قاعدة احتقار مواهب عبيدهم العقلية ، وهذه العدد التي أعدها الخلفاء بفرط ذكائهم ظهر أثرها في زيادة خارقة للعادة في السكان على حين كانت جميع بلاد أوروبا لا يتضاعف سكانها إلا بعد مضي أربعة أو خمسة قرون ولم تنحصر عنايتهم الأبوية في حفظ الصحة والحياة فقط ، فمع كثرة النفوس المفرطة كانوا لا يرون أحداً يصاب بمصيبة إلا نفسوا عنه الكرب وواسوه وهذا فيما لم يمكن اتقاؤه منها .

وكان يساعدهم على اتقاء النكبات اتخاذهم نظاماً حسناً في استخدام البطالين في اصلاح الطرق والأشغال العامة وكان عبد الرحمن الثاني قد أعلن أن كل من يريد العمل يُمنحه ، ودوائر العدل التي خلفتها محاكم التفتيش وغرف التعذيب كما أثبته المحققون ، كانت منزهة عن كل ريبة أو فساد ، وكانت المعارف والتعليم أحسن مما كانت فيه ممالك الروم ولم يكن يضاهيها إلا ما بلغه اليونانيون من المعارف العلية في أرقى أيامهم . والخلفاء أنفسهم شيدوا المشافي (جمع مستشفى)ودور الأيتام كما كان يفعل ملوك اليونانيين ، ومنذ زال ملكهم زالت هذه المؤسسات من أوروبا ، وكان الأعيان والتجار لا يألون جهداً ما اقتفوا آثار الخلفاء في العمل بهدى القرآن في مثل هذه الخيرات ، وكان الخلفاء أنفسهم يعودون المرضى ويبحثون عن المكروبين لينفسوا كربهم . والنساء اللائي كن نزلن إلى دركة الخدم في بلاد أوروبا لكراهية القسيسين للزواج وإيثارهم العزوبة كنّ على خلاف ذلك عند المور مكرمات مالكات حريتهن ، والكرم إن لم نقل البذخ والسرف اللذان حلا محل التقشف والتعصب في دمشق انتقلا إلى الأندلس فكانا كافيين لحفظ مركز المرأة ، والعشرة الخشنة التي يعاشر بها المسلمون المرأة كما هو مشهور عندنا لم توجد في الأندلس والنساء في القصر الملكي بقرطبة كنّ يساعدن الخلفاء في تدبير الأمور ، وكان طلب العلم مباحاً لهن بكل حرية ، وكثير منهن كان

لهن ولع شديد بالعلوم الرائجة في ذلك الزمن ، من فلك وفلسفة وطب وغيرها ، وكانت النساء يتبرقعن في خارج بيوتهن ولكنهن كنّ مكرمات ، وفي منازلهنّ كنّ مشرفات ومحترمات ، ولا حاجة إلى أن أتكلم في ظرف المور ولطفهم وشهامتهم لأنهم هم الذين طبعوا الشعب الإسباني طبعاً لا يمحى أبداً على الإحترام الشخصي واللطف الذي لا يزال من خواصه المستميلة حتى في الصناع والفلاحين ، وهناك مزية أخرى يمتاز بها المور وهي التسامح الديني .

في أول الأمر كان هناك بلا شك شهداء يعني مقتولين لمخالفتهم الدين ولكن لا مناسبة بين ذلك وبين المذبحة التي عملها الإسبانيون أخيراً في ذرية المــور .

وأما بعد استقلال المملكة العربية في الأندلس ، فإذا استثنينا معاملتهم لطوائف الثوار من النصارى كأهــل طليطلة الذين كانوا على الدوام ينتظرون الخلاص من ناحية الشمال ، فقد كان أهل الأديان جميعاً يعاملون بالحسنى وكانت على اليهود والنصارى فريضة مالية قليلة تخصم وكانوا يتمتعون بحماية حقوقهم فكثر عددهم وعظم بذلك الخرج الذي يـُؤخذ منهم .

وقد رخصوا لنصارى طليطلة في المحافظة على كنائسهم الكبرى ورخص لهم أن يبنوا عدداً كثيراً من الكنائس ، وكانت لهم في طليطلة ست كنائس ، وكانوا مستمسكين بالعلاقات الودية مع جيرانهم حتى أثار فيهم القسيسون الضغينة الدينية وأما ما يخص اليهود الذين كانوا يتمتعون بعصرهم الذهبي حينئذ وارتقوا إلى أعلى درجة في العلوم ونالوا أعلى المناصب في دولة المور فسأتكلم عليه في فصل آخر .

وهذه النبذة المجملة في ذكر مدينة المور ستزداد وضوحاً وتفصيلاً عنــد الكلام على وصف حياة قرطبة وغرناطة ولا بد أن القارىء علم مما ذكرناه آنفاً تفوق المدنية التي يزعمون أنها وثنية تفوقاً خارقاً للعادة ، ولا بد أنه رأى أثرها في أوروبا المتوحشة وهذا صحيح لا يمترى فيه أحد من المؤرخين .

والمؤرخون لا يقابلون بين المور والنصارى لأنهم لو فعلوا ذلك لكانوا كالذي يقيس أهل (بوستون) مدينة في أمريكا بقبائل أسكيمو وذلك عجب عجيب .

قال (ستنلي لين بول) في شأن النصارى الذين فتحوا شمال اسبانيا : كانت غزوات النصارى لعنة عظيمة على من

يكون لهم فريسة ، وكانوا خُشناً جاهلين أميين لا يقدر على القراءة إلا قليل منهم جداً ، ولم يكن لهم من الأخلاق إلا مثل ما لهم من المعارف — يعني لم يكن لهم منها شيء — وأما تعصبهم وقسوتهم فهو ما يمكن أن نتوقعه من الهمج البرابرة . ا ـ هـ

ونكتفي بهذا القدر من صفة حال أهل أوروبا قبل فتح المسلمين لجنوب بلادهم وإقامة مدنية عظيمة أدهشت العالم وفتحت لأهله باباً ليخرجوا من ظلمات الهمجية والجهل إلى نور المدنية والعلم ، وقد اقتبس الأوروبيون من المسلمين الفاتحين المعلمين المهذبين قبسة من علومهم وآدابهم ، كانت أساساً لنهضتهم ، ولا شك أن العلم والمدنية الذين سبق إليهما المسلمون في الحجاز أولاً حيث نزل القرآن وأشرق نور الإسلام ثم في دمشق والأندلس وبغداد ثانياً هما أعظم تقدم شهده العالم قبل نهضة الأوروبيون ، فالمسلمون أئمة العلم والحضارة والأخلاق لو تركوا ذلك التقدم ورجعوا إلى ما كانوا عليه قبل الإسلام لكانوا رجعيين مذمومين منتكسين خاسرين . وكذلك الأوروبيون لو رجعوا من نهضتهم وتقدمهم إلى ما كانوا عليه في زمن نهضة المسلمين لكانوا رجعيين أشقياء مخذولين خاسرين ، ولكن الأوروبيين استمروا في نهضتهم من الوجهة المادية وقلّت عنايتهم بالوجهة الخُلُقية ، وقد بلغوا اليوم أوج المدنية والسعادة المادية ولا يزالون دائبين في طلب الكمال وإذا التفتوا إلى الوراء وشهدوا ما كانوا فيه من الجهل والظلمة اغتبطوا واستعاذوا بالله من ذلك العهد . ولهم الحق في ذلك ، ولو أراد بعضهم الرجوع إلى تلك العصور المظلمة كما يسمونها هم أنفسهم لحكم عليه عقلاؤهم بالجنون وسفهوا رأيه واحتقروه وهو بذلك جدير ، أما المسلمون ومنهم العرب فإن معظمهم مسلمون وغير المسلمين منهم قليلون والحكم للغالب ، فقد أخذت علومهم ومدنيتهم في الجزر بعد ذلك المد العظيم منذ مئات السنين ولم يزالوا يرجعون إلى الوراء وينحطون من عليائهم حتى بلغوا أسفل سافلين ، وكانوا بالنسبة إلى الأوروبيين كدلوين اختلفا صعوداً وهبوطاً ، فكلما تقدّم الأوروبيون في العلم والمدنية اللذين اقتبسوهما من المسلمين ازداد المسلمون توغلاً وهبوطاً في الجهل والتأخر اللذين اقتبسوهما من الأوروبيين ولا شك أن استمرارهم في هذه الحال لا يزيدهم إلاّ خبالاً ، فماذا ينبغي لهم أن يعملوا لاستعادة علمهم ونورهم ومجدهم ؟

أيعودون إلى جاهليتهم الأولى يطلبون منها الخلاص ولا خلاص فيها ؟ أم يعودون إلى جاهلية الأوروبيين ؟

قال قائل لا هذا ولا هذا ولكن يقتبسون من الأوروبيين مدنيتهم الحاضرة ويعتبرون أنفسهم كأنهم خُلقوا خلقاً جديداً ، ويقطعون النظر عن الماضي بخيره وشره ، قلنا لهم هذا تقليد ومحاكاة لا ثمرة لهما أبداً ، ولا بدّ لكل بناء من أساس ولو أرادوا أن يفعلوا ذ ك ما استطاعوا إليه سبيلاً ، فإن الأوروبيين حين اقتبسوا العلم والمدنية من المسلمين لم ينسلخوا من تاريخهم ، وعاداتهم وعقائدهم ، ولو فعلوا ذلك لصاروا مسلمين ، وإنما أخذوا من أساتذتهم المسلمين ما كانوا في حاجة إليه حسبما بدا لهم ، ولم يتركوا شخصيتهم ولا جنسيتهم وبذلك بلغوا من الرقي ما هم عليه ، إلاّ أنهم أغفلوا جانباً من علوم الإسلام ، وهو ما يتعلق بالنفس وتزكيتها والصعود بها من دركات المادة الصماء إلى أوج السعادة الروحية .

وهذا الجانب الذي أغفلوه هو الذي سبّبَ لهم ما هم فيه اليوم من الشقاء بالتخاصم والتنازع والتحاسد والتحارب وسعى كل فريق منهم إلى الإستئثار بأطايب الحياة وشهواتها وملذاتها وحرمان من سواهم من البشر . وإذا كان آباؤنا قد سبقوا إلى العلم والنور والمدنية والأخلاق الفاضلة ورجعنا نحن إلى اقتفاء آثارهم ، وإحياء علومهم لم نكن رجعيين وإنما نحن متقدمون أحسن التقدم إلاّ إذا قلنا : إن علوم المدنية والحضارة قد وقفت في الحد الذي وصل إليه أسلافنا ، فيجب أن نقف عندما وصلوا إليه ولا نقتبس شيئاً جديداً نافعاً أبداً وحينئذ نكون جامدين ولا نستحق الحياة ، فبعض الكتّاب من المسلمين المتهورين الذين لا يزنون أفكارهم بل يهرفون بما لا يعرفون إذا سمعوا الأوروبيين يستنكرون عصورهم المظلمة ويسمونها رجعية ويستعيذون بالله منها يقلدونهم في أقوالهم كالببغاءات ويحاكونهم في أفعالهم كالقردة ولا يعلمون الفرق بين ماضينا وماضيهم فان ماضيهم كما قال علماؤهم ظلمات مدلهمة لا نور فيها ، أمّا نحن فبالعكس ماضينا علم ونور ، وحضارة مزدهرة وقوة وعز وسعادة ، فرجوعنا إليه هو عين التقدم ولا يتنافى ذلك مع اقتباس ما جدّ من العلوم والأعمال النافعة .

والحكمة ضالة المؤمن ، أما حاضرنا فهو كماضيهم ظلمات بعضها فوق بعض ، ولنا مثال آخر مع فرق سننبه

عليه وهو الشعب الياباني فإنه اقتبس الحضارة الأوروبية وبلغ فيها شأواً يفوق أساتذته أو فاقهم مع المحافظة على مقوماته ومعنوياته لا يتنازل عن شيء منها فماذا نقول في هذا الشعب أهو تقدمي أم رجعي ؟ لا يستطيع أحد أن يقول هو رجعي فإنه في طليعة الشعوب المتقدمة وقد أصيب بهزيمة عظيمة في الحرب العالمية الأخيرة ، فلم تقض عليه ولم توقف تقدمه ولا يزال هذا الشعب يقدس ملكه ويعتقد أنّه ابن الشمس ، ويقوم في خدمته بطقوس لا تعقل ولم يضره ذلك ولا نقص تقدمه لأنه لا يخطو خطوة في طلب التقدم إلا بعقل ووعي ولا يحب التقليد أبداً .

لمّا كنت مقيماً في برلين كنت أتردد على المطعم الصيني أحياناً وكنت أراه مع اختلاف أطعمته عن المطاعم الجرمانية يشابهها في التأنق والزخرفة ويؤمه دائماً الأغنياء من الأوروبيين الذين عاشوا مدة في الشرق وألفوا أطعمته ، بنسائهم وبناتهم وأولادهم وكثير منهم كانوا يأكلون الرز بالعيدان كعادة الصينيين إلاّ أنهم يشربون الحساء بدون صوت سواء منهم الشرقيون والغربيون كعادة الأوروبيين فإنهم يستنكرون الشرب بصوت وكان في ذلك الوقت في برلين ثلاثة مطاعم صينية ، وسمعت بمطعم ياباني فذهبت إليه لأوازن بينه وبين المطاعم الصينية ، فلم أرَ فيه شيئاً من التأنق وكان صغيراً ، رأيت فيه نحو خمسة وعشرين آكلاً كلهم رجال يابانيون ولا يوجد فيه إلاّ امرأتان اثنتان ، عجوز في المطبخ وأُخرى توزع الطعام ، والذي استرعى نظري فيه وتعجبت منه هو شرب الحساء بأصوات منكرة تتجاوب أصداؤها فقلت في نفسي هؤلاء اليابانيون كلهم يقيمون في البلاد الجرمانية ويعرفون عادات الجرمانيين حقّ المعرفة وانهم يستقبحون الشرب بصوت فقد رغبوا عن عاداتهم وتباروا في الشرب بأصوات عالية فما مقصودهم بذلك ؟ أظن أن مقصودهم الإعتزاز بعاداتهم كيفما كانت ، لأنهم لم يسافروا إلى أوروبا بقصد تعلّم أدب الأكل وأدب الشرب وأدب الرقص وأدب الغناء وما أشبه ذلك ، لأنهم يرون آدابهم أكمل الآداب ولا يبغون بها بديلاً ولكنهم جاءوا لأغراض لا يمكن أن تحصل في بلادهم وفي ذلك عبرة للمقلدين .

هذا واليابانيون وثنيون يعبدون غير الله وهو نقص كبير في معنوياتهم

وإهمال لتزكية أنفسهم وتوجيهها لما خلقت له ولما يرفعها ويسمو بها إلى الملأ الأعلى ويبلغ بها أعلى مراتب الكمال الإنساني ولكنهم لما تجنبوا التقليد في اقتباسهم علوم الأوروبيين وأخذوا منهم العلم على بصيرة واستقلال وبعقل وروية كما فعل الأوروبيون مع المسلمين أدركوا الثمرة نفسها التي أدركها الأوروبيون وهي السعادة المادية المنغصة بسبب إهمال النفس ، ولو أن اليابانيين همّوا بالرجوع إلى ما كانوا عليه قبل مائة سنة لكانوا سفهاء رجعيين ولزيادة الإيضاح أقول : كيف كان العرب وسائر الشعوب التي أسلمت وحسُن إسلامها قبل الإسلام وكيف صاروا بعد الإسلام ؟

الجواب أنهم كانوا قبل الإسلام من الوجهة الخلُقية في أسفل الدركات يقتلون أولادهم من الفقر أو خوف الفقر ، والمراد بقتلهم من الفقر أن يكونوا فقراء فيقتلون من يولد لهم لعجزهم عن إعاشته بالتغذية وسائر ما يحتاج إليه ، والمراد بقتلهم خوف الإملاق أن يقتلوا الولد مخافة أن تفضي بهم حياته إلى الفقر في المستقبل ولذلك جاء في القرآن الكريم في سورة الأنعام (١٥١ : ولا تقتلوا أولادكم من إملاق وفي سورة الإسراء (٣١ : ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق) وكانوا يئدون بناتهم أي يدفنونهن حيّات وكانوا يعبدون التماثيل من الحجارة كما يعبدها كثير من البشر في هذا الزمان ، وكانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله وكانوا يستقسمون بالأزلام ، يضعون عيداناً في كيس قد كتب على بعضها أمرني ربي أن أفعل ، وعلى بعضها نهاني ربي أن أفعل ، وبعضها غفل لا كتابة عليه . فيدخل الواحد منهم يده فاذا صادفت العود الذي فيه الأمر أقدم على عمله ، وإذا صادفت العود الذي فيه النهي أحجم عن عمله ، وإذا صادفت العود المهمل أعاد الإستقسام ، وكانوا يتيمنون ويتشاءمون بالطير ، يزجرون الطائر فإن طار إلى اليمين استبشروا وإن طار إلى الشمال تطيروا وخافوا .

وكانوا يخافون من الجن ويعوذون برؤسائهم أي يطلبون الحماية منهم وكانوا يأكلون الميتة والدم ، ولا يورثون امرأة ولا صبياً بل كانوا يرثون النساء أنفسهن باعتبارهن أموالاً ، وكان بعضهم يقتل بعضاً على أتفه الأمور . ويضيعون أموالهم في القمار والمنافرة وهي أن يتنافر إثنان للتفاخر فيعقر هذا بعيراً من ابله وينحر ، ويعقر

الآخر مثله حتى تفنى ابل كل منهما ، وكانوا أشتاتاً كل قبيلة وحدها لا كلمة تجمعهم ولا عقيدة ولا دين ولا شريعة ، وكانوا أذلاء سكان القسم الشرقي تحت حكم الفرس ، وسكان القسم الغربي تحت حكم اليونانيين وسكان وسط الجزيرة كانوا فوضى ولم يحفظ التاريخ لوسط الجزيرة وغربها وشرقها حضارة تذكر ، أمّا أهل الجنوب فقد كانت لهم حضارة قضى عليها جيرانهم من الحبشة وأهل فارس فكيف صارت حالهم بعد الإسلام ؟

كل أهل العلم يعلمون أنهم صاروا أسعد الناس ، صاروا أئمة أهل الدنيا في الدين والدنيا ، وصاروا حكّام العالم وقد رأيتم في هذا المقال شهادة العلماء الأوروبيين المنصفين لطائفة منهم وهذا أمر واضح لا يحتاج إلى إقامة دليل فهل الإعتزاز بهذا المجد والبناء عليه والتمسك به يعدّ رجعية ؟ إن كان الأمر كذلك عند هؤلاء السفهاء فحيا الله الرجعية وحي عليها وأهلاً وسهلاً بها ، ألا ساء ما يحكمون .

ويقال لهؤلاء التقدميين المخدوعين أين تذهبون ؟ أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ؟ اهبطوا فقراً وذلة وشتاتاً وجهلاً وحزناً وشقاء فإنّ لكم ما سألتم وستضرب عليكم الذلة والمسكنة وتبوؤن بغضب من الله زيادة على ما أنتم عليه ، ذلكم بأنكم تقتلون المصلين في المساجد وتشردون علماء الإسلام المصلحين فريقاً حبستم وفريقاً تقتلون والله عزيز ذو انتقام .

وما من يد إلا يد الله فوقها
وما ظالم إلاّ سيُبلى بأظلم

الرجعية والتقدم
في نظر الإسلام

تقدّم أن العقل الصحيح يرى التقدم في العلم والعدل وسائر الأخلاق الكريمة فكل أمة اتصفت بالعلم والأخلاق فهي متقدمة وإن كانت قبل مليون سنة ، وكل أمة اتصفت بالجهل ومساوىء الأخلاق فهي متأخرة ساقطة مذمومة ملعونة وإن كانت ستجيء بعد بعد خمسمائة سنة ، والإسلام دين العقل يوافق على هذا ولا يخالفه أبداً فلا عبرة بالزمان ولا بالمكان ، قال الله تعالى في سورة النساء : (ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوء يجزَ به ، ولا يجد له من دون الله وليّاً ولا نصيرا ، ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا) .

البقية على ص



الرجعية فى نظر الدول
التى لاتدين بدين

عبرت بالدول ولم اعبر بالشعوب، لانحرية الفرد فى شعوبها أمر مستهجن لاقيمة له فلا سبيل الى معرفة مقدار تمسك شعوبها بالدين او عدمه فلا نستطيع ان نحكم عليه وانما نحكم على حكامه فهم يزعمون ان الدين (أفيون) الشعوب قالوا لان الدين شىء لاتفهمه العامة فهو منحصر فى رؤساء الكنائس وهؤلاء الرؤساء يستحوذون على الشعب بالترغيب والترهيب ويتصرفون فيهوفى رؤسائه وامرائه وسوقته حسب اهوائهم ويوجهونه الى أىوجهة شاءوا كما تسوق الرعاة الاغنام ، ولو ان هؤلاء الحكام طالبوا بالتحرر من سلطان رجال الكنيسة ليختار الشعبالوجهة التى يريدها فى عقيدته ونظامهوحكمه وعلمه ومعيشته وتعليمه وشؤونه الاجتماعية كما فعل الخارجون على الكنيسة البابوية لربما كان قولهم مفهوما ، ولكنهم يدعون الى محو سلطان الكنيسة الذى يخوف الناس بعذاب اللهويبشرهم بالسعادةالروحية بعد الموت ليقيموا بدله سلطانا ماديا تحت لمعان السيوف والنفى والقتل والتعذيب وكتم الانفاس وكبت الحريات ومضايقة الناس فى أرزاقهم وأعمالهم وتعليمهم ومساكنهم وطعنهمواقامتهم . والطامة الكبرى انهم يفرضون عليهم دينا اخر وعقيدة اخرى لايقولون لهم انها جاءت من الله ولا من الرسل ولا من الانبياء ولكن من اشخاص مثلهم من ابناء جلدتهم ومن يتجرأ على رفض شىء من تلك العقائد فالويل له ماذا ينتظره من العذاب المهين او الموت الزؤام فهم ينقلونهم من ضيق الى أضيق ومن دين

غير مفهـــوم بادعائهم الى عقائد غير معقولة يجزمون ببطلانـها ويكرهونها ولايجدون عنها محيصا فهم كما قال الشاعر :

المستجير بعمـــرو عند كربتـه

كالمستجير من الرمضـــاء بالنار

وان كان القسيسون يبشرون اتباعهم بنعيـــم الفردوس فتمتـــلىء أرواحهم سعادة وغبطة ولايأخذون من أموالهم الا ماتبرعوا به عن طيب نفس فان الحكام التقدميين يسلبونهم كل شيء ولايبيحون لهم أن يملكوا شيئا : لامسكنا ولا حيـــوانا ولاشبر ارض يزرعونه ولا تجـــارة ولاصنـــاعة يستغلونها ولايتعلم الطلبة من العلوم الا مايشتهون اعنى الحكـام ولايلقى مدرس درسا فى علـــم من العلوم الاجتماعية او يكتب كلمة فى كتاب او صحيفة او رسالة فى البـــريد بل لايتكلم بكلمة امام رفاقه بل امام اهل بيته الا اذا وزنها بميزان الذهب خوفا من أن تكون مخالفة للتعليم والقوانين والعقائد الاشتراكية فتخطفه الزبانية

واذا أراد الحكام تسليـــة عامتهم وتبشيرهم حدثوهم بمتخيلات لايمكنهم تصديقها ابدا يقولون لهم :

نحن الان فى البداية وكل بداية صعبة كما يقول المثل الالمانى فاصبروا على قلة الغذاء وضيق المسكن وخشونة الملبس وكثرة ساعات العمل وقسوته وصعوبته فسيأتى زمان هو المقصود بالذات ان لم نـدركه نحن فستدركه الاجيال المقبلة وحينئذ لايشتغل العامل الا خمس ساعات فى اليوم والليلة ولا توضع اقفال على مخازن الطعام والثياب وتكون الاموال مشاعـــة بين ابناء الشعب كل واحد يأخذ لنفسه منها ماشاء ويشتغل اذا شاء وينام اذا شاء ويسافر اين شـــاء ويلبس ماشاء ويركب ما شاء ·

وهذا التبشير من السادة الحاكمين واذنابهم وابواقهم يجب على المحكومين وهم عامة الشعب ان يتلقوه بالتصفيق والهتاف والتحميـــد والتمجيد والا توجه اليهم تهمـة خطيـــرة وهى (الرجعية) و (البرجوازية) والميل الى الرأسمالية وماشبه ذلك ولو كان اولئك العامة يستطيعون التعبير عما فى ضمائرهم لانشدوا قول ابى فراس:

معللتى بالوصـــل والموت دونه

اذا مت ظمآنا فلا نـــزل القطر

فالتقدم عند هؤلاء الحكام ينحصر فى امامين مقدسين معصـــومين من الخطأ جميع ارائها حق ، وليس لاحد ان يفســـر هذه الاراء الا الحكـام الحاضرون ولو فرضنا ان هؤلاء الحكام استبدلوا بحكام اخرين لم يبق لهم صلاحية للتفسير ومافسروه من قبل لاتلزمه العصمة من الخطأ وقد ينسخ كله دفعة واحـــدة والقول مايقـوله الحكام الحاضرون ، وكل شيء يخالف اراء الامامين حسب تفسيـــر الحكام

الحاضرين فهو رجعيــــة تتنافى مع التقدم ·

ولو فرضنا ان حاكما فسر شيئا من اراء الامامين اليوم لوجـب على الشعب كله بعلمائه وحكمائه وكتابه ان يتلقى تفسيره بالقبول والتقديس، والا كان رجعيا وان لم ينتـه يكون خائنا فلو عزل ذلك الحـاكم غدا لاصبح تفسيره عديم القيمة مرغوبا عنه بل قد يكون منكرا وضلالا ،وهذا كله شاهدناه بأعيننا وسمعناه باذاننا ولكننا لم نفهمه والله المستعان ·

كنت في برلين الغربية اتيمم للصلاة لانى كنت مريضا لااقدر على استعمال الماء فرآني شاب من برلين الشرقية فقال لى ماذا تصنع ؟ فقلت هو ماترى فقال وهل هذا من الدين قلت نعم قال : هذا شيء شكلي لامعنى له ولا فائدة اما الوضوء ففيه تنظيف للاعضاء المغسولة واما المسح بالتراب فليس فيه الا التلويث فقلت : سمعتك تـذكر ان ـ ستالين ـ الف كتابا فى التربية وتثنى على ذلك الكتاب مع ان ستالين رجل عسكرى قضى عمـره كله فى المراتب العسكرية ولم نسمع انه كان يوما ما معلـما ولامدير مدرسة ولا مشتغلا بالتربية فمن اين جاءه علم التربية حتى الف فيه كتابا نفسيا فثناؤك عليه ثناء شكلي وتقليد وانما اثنيت على كتابه الذى ألفه فى علم التربية لانه رئيس دولة وزعيم حزب فشهادتك له تملق محض ·

اما معنى التيمم فهو معنى الصلاة فان الله غنى عن العالمين فاذا عظموه بالصلاة والدعاء والتمسـح بالتراب فانما ذلك لتزكية نفوسهم وتكملتها· وبعد موت ستالين اسقطه خلفه من درجة التقديس وظهـرت له ذنوب ، واخطاء كثيرة وهذا الخلف نفسه شرب بالكأس نفسها ·

وحاصل ماتقدم ان الـدول التى لاتدين بالنصرانية تقـدس نحلتها وتعدها تقدما وتعد كل ماخالفها رجعية او برجوازية · وتذم كل مخالف ونحن لانستطيع ان نفهم ان سويسرا مثلا رجعية او ناقصة التقدم ·

الرجعية عند الشعوب العربية في العصور الاخيرة

اعلم أن العرب فى هذا الزمان اعنى دولتهم منقسمون الى قسمين : قسم يسمون انفسهم تقدميين واشتراكيين فاذا قيل لهم هذا لفظ مبهم ، فاى اشتراكية تعنون ؟ يقولـون نعنى الاشتراكية العـربية فيقال لهم ان العرب كانوا بعد جاهليتهم لايعرفون الا الاسلام ولايدعون الا اليه ولايتبعون الا القرآن وسنة النبى صلى الله عليه وسلم ، ولفظ الاشتراكية غيرموجود فى الكتاب والسنة ، ولم نـر لهم تعريفا جامعا لهـذه النحلة ولاحدا يحدبها اما الاعمال التى يقومون بها ويعلنون انها من مفاهـم الاشتراكية فانهم يختلفون فيها · اما ان كانوا يعنون الاشتراكيـة المستوردة من اوروبا ، ففى اوروبا نوعـان من

الاشتراكية ! الاشتراكية التي هي مقدمة الشيوعية · كما في شرقي اوروبا وفي يوغوسلافية والصين ماعدا فرموزة · والبانيا والاحزاب الشيوعية في الشعوب الاوروبية · والاشتراكية الديمقراطية : كاشتراكية حزب العمال في بريطانيا والمانيا وبلجيك وفرنسا وغيرها ، وهناك اشتراكية انقرضت وهي الاشتراكية الوطنية التي كان عليها هتلر وموسوليني ، واظن ان هذه الاشتراكية التي تلهج بها بعض الدول العربية هي الى اشتراكية هتلر اقرب وبها اشبه ، مع فارق عظيم وهو ان الشعب الالماني الذي كان من وراء هتلر شعب عظيم في مقدمة شعوب الحضارة والعلم والمدنية العصرية ، بخلاف شعوب تلك الدول فانها لم تبلغ في ذلك نصيبا يذكر فهي مما يسمى على سبيل التفاؤل بالشعوب النامية ، كما يسمى اللديغ سليما · ولذلك كان لاشتراكية هتلر نجاح مؤقت في جميع الميادين بخلاف هذه الدول فاننا الى الان لم نشاهد لها شيئا من النجاح الذي كان للحزب الناتسي ، اما الحرية والدمقراطية بمعناهما الصحيح فان نصيب هذه الدول منهما اقل من نصيب الحزب الناتسي ·

والقسم الثاني ممالك وامارات وهذه الممالك والامارات سائرة على ماكانت عليه من قبل لم تتخذ لنفسها اسما جديدا وكلها تأخذ باسباب الحضارة على حسب ماتسمح لها احوالها ومقدراتها وكلها تدعو الى التعاون والتآخي بين العرب ولاتنكر الوحدة اذا سارت في طريقها الطبيعي مرحلة بعد مرحلة ، وانما تنكر العدوان والتدخل في الشئون الداخلية ان يقع من دولة في شؤون دولة اخرى ،وهذا هو المعقول الممكن · على انني لااهتم كثيرا بهذه الوحدة الا اذا كانت مبنية على قواعد الاسلام ، وكذلك لااهتم بالعرب الا اذا كانوا مسلمين قولا وفعلا · وآية ذلك ان يتبعوا القرآن وماصح من سنة النبي صلى الله عليه وسلم ويكونوا أمة واحدة كما كانوا في دولة النبي ودولة الخلفاء ،ولافرق بين مسلم عربي ومسلم غير عربي عندما قال تعالى في سورة الحجرات : «وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله ، فأن فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا ان الله يحب المقسطين انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين اخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون·»

ولم يقل وان طائفتان من العرب اقتتلوا ولا قال انما العرب اخوة ، وليس مقصودي غمط حقوق الجماعات العربية التي لاتدين بالاسلام فان ذلك ظلم والله لايحب الظالمين بل نعامل المواطنين من العرب غير المسلمين بالعدل والاحسان الى أن يطمئنوا على حقوقهم ويثقوا بمواطنيهم المسلمين كل الثقة ويأمنوا بارائهم ، لان الاسلام

دين الرحمة والمحبة والعدل قال تعالى فى سورة الانبياء : ـ ومارسلناك الا رحمة للعالمين ـ وبحكم الاقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم يجب على امته ان يكونوا رحمة للعالمين .

ثم ان للعرب غير المسلمين على العرب المسلمين حق القرابة وصلة الرحم ، والمخالفة فى الدين لاتسقط هذا الحق ولو طبق العرب المسلمون مع العرب غير المسلمين ماجاء به الاسلام لما احتاجوا الى أن يوجسوا فى انفسهم خيفة او يطلبوا حماية من الدول النصرانية الاجنبية او ان يؤلفوا احزابا على أسس تنقض عرى الاسلام وتقضى على الاخوة الاسلامية ليشغلوا المسلمين بها ويشتتوا شملهم ويفرقوا جمعهم كما هو الواقع فى بعض الاقطار العربية وهذه الدول التى تسمى نفسها تقدمية اشتراكية تظهر عداوة شديدة للممالك والامارات لالشىء الا لانها لم توافقها على مذهبها الجديد. ومن عداوتها لها انها تسميها رجعية تريد انها بمجرد تسميتها نفسها تقدمية واشتراكية وجدت طريق السعادة وسلكته ، وهى تريد من تلك الممالك ان تجد هذا الطريق وتسلكه معها فان لم تفعل استحقت القطيعة والهجران والمكايد وتربص الدوائر زيادة على الشتائم التى تصب عليها ليل نهار ، وحجة هذه الممالك والامارات فى رفضها لما عرض عليها من هذا المذهب الجديد انها ليست كاليتامى القاصرين او الصبيان السفهاء حتى تطمع الدول الاشتراكية ان تضع نفسها فى مقام الوصاية والتربية والتأديب والاشراف والنظر فى مصالحها . ثم ان هذه الممالك والامارات لم تر شيئا من التقدم والتحسن طرأ على تلك الدول ولا على شعوبها بعد انتحالها للنحلة الجديدة لا فى العقائد ولا فى الاخلاق ولا فى الاقتصاد ولا فى السياسة ولا فى القوة الحربية ولا فى الروابط الاجتماعية بل ترى عكس ذلك هو الواقع وهى مع ذلك تدعو الى روابط الاخوة والصداقة وتبادل المصالح والمنافع وتنشد قول طرفة :

١ـ فمالى ارانى وابن عمى مالكا
متى أدن منه ينأى عنى ويبعد

ولما كان الاستطراد من طبعى الذى لاأنفك عنه وأعلم أن أكثر المستمعين يصعب عليهم فهم هذه الابيات التى هى من الادب الجاهلى العالى اردت ان أشرحها لهم ليتمكنوا من فهمها ويلتذوا بانشادها .

يقول فى هذا البيت مابال ابن عمى مالكا كلما اردت أن أتقرب اليه واتودد اليه يجفونى ويبعد عنى ؟

٢ـ وآيسنى من كل خير طلبته
كانا وضعناه الى رمس ملحد

يقول قنطنى ابن عمى هذا من كل خير طلبته منه حتى كأنه ميت مقبور لايرجى خيره .

٣ـ على غير شيء قلتــه غير انني نشدت ولم أغفـــل حمولة معبد

يقول : ثم أن الجفاء هذا الذى وقع من ابن عمى لم يكن له سببفانني لم اسء اليه لا بقول ولا بفعل ولكنيطلبت ابل اخي معبـد وبحثـت عنهـا حتى وجدتها ولم أهملها ولايعقل ان يكون هذا سببا للعداوة والجفاء

٤ـ وقربت بالقربى وجــدك انه متى يك امــــر للنكيثـة اشهـد

يقول ولم أقصر في مراعاة واجبات القرابة واقسم بحظـــك وحقك ايهـا المخاطب انه لايصيب ابن عمى امــر يجهده ويكربه الا حضــرت ونصرته ودافعت عنه ٠

٥ـ وان ادع للجلى اكن من حماتها وان يأتك الاعـــداء بالجهد اجهد

يقول متى دعوتني الى الامر العظيم الذى ينزل بك ابادر الى حمايتك من كل مكروه وان جاءك الاعداء يبغون قتالك بجهدهم وقوتهم ابذل كل جهد في دفعهم عنك ٠

٦ـوان يقذفوا بالقذع عرضكاسقهم بشرب حياض المــوت قبل التهدد

يقول : وان طعن الاعداء فيعرضك وأرادوا ان يخدشوا شرفك واساءوا اليك بقـــول الفحش اذيقهم الموت واباغتهم به قبل التهديد والوعيد او الانذار والتحذير ٠

٧ـ بلا حــدث احدثته وكمحدث هجائي وقذفي بالشكـــاة ومطرد

يقول : ان ابن عمى مالكا يعاملنى بهذه المعاملة القاسية بدون ذنبفعلته كانني مــــذنب فيهجوني ويـذمني ويشكوني ويصيرني طريدا بعيدا ٠

٨ـ فلو كان مولاى أمرأ هو غيره لفرج كربي او لانظـــرني غـد

يقول : فلو كان ابن عمى رجلااخر من أهل المروءة لكشف عني المكروه كما اكشفه عنه او لامهلني على الاقل الى المستقبل حتى يتبين لى صدقيفي مودتي ولم يقابل احساني بالاساءة٠

٩ـ ولكن مولاى امرؤ هو خانقي على الشكر والتسآل او انا مفتدي

يقول : ولكن ابن عمى رجليضيق على مع شكرى له والسعى في ارضائه وابتغاء الاحسان منه يعاملني معاملة العدو الذى يعمد الى خنق عدوه الا أن يفتدى نفسه بمال او نحوه ٠

١٠ـوظلم ذوى القربى أشد مضاضة على المرء من وقـــع الحسام المهند

والظلم وان كان يؤلم من القريب والبعيد فانه من القريب اشد ايلاما وأكثر مرارة من الضرب من السيوف القواضب ٠

١١ـفذرني وخلقي انني لك شاكر ولو حل بيتي نائيـــا عند ضرغد

يقول : فاتـركني ياابن عمى على طبيعتي وحسن عشرتي فاني لاقابل اساءتك بمثلها وهـــذا هو الواجب عليك وساشكرك عليه كـــانه نعمة

اسديتها الى ولـــو كنت بعيد الديار
اسكن فى جبل ضرغد ٠

الفاظ يتبجح بها كثير من الناس فى هذا الزمان كالثورة والجمهورية والديمقراطية والحرية :

وقد شرحتها فى مقال (ايها العرب لاتتخذوا التفرقة وسيلة الى الوحدة) وقد نشر فى صحف كثيرة منهامجلة البعث ومجلة الايمان المغربية ،ولذلك لأطيل القول فى شرح هذه الالفاظ٠

فالثورة هي خـــروج الشعب على حاكمه او حكامه اذا اساءوا التصرف وجاروا وظلموا ولم يكونوا اهلا للامانة التى جعلت فى أيديهم كما وقع فى الثورة الفرنسيـــة وفى ثورة سكان الولايات المتحدة الاميركية على حكامهم البريطانيين فاذا توفـــرت اسباب الثورة وكان القائم بها هو الشعب، وكان قادتهـــا مخلصين مصلحين لايريدون بثورتهم رئاســـة ولا مالا وانما يريدون رفع الجـــور واازلة الفساد وتحرير الشعب فان الثورة يكتب لها النجاح وتؤتى أكلها اما اذا كان القائمو نبها عصبة لهـــم مآرب وأغراض قد اوغـــر صدورهم الحسد وتراءت لهم الامـــانى فاوقدوا نيران الثورة واعملوا الســـلاح فى شعبهم وسفكوا الدماء ليتوصلـــوا للمراتب التى لم يزالوا يمتنونها فقد يتفطن لهم القابضون على زمام الحكم ويخمدون انفاسهم ويصيرون مسخرة للساخرين ويخسرون كل شيء ، وقد لايتفطنون لهم فتنجح الثورة نجاحا مؤقتا الى ان تسنح الفرصة لعصبة اخرى فيقبضوا عليهم ويسقوهم بالكأس التى سقوا بها غيرهم فيقال فيهم ماقيل فى ابى مسلم الحراسانى :

ظننـــت ان الـــدين لايقتضى
فاستوف بالكيل ابا مجـــرم

اشرب بكأس كنـــت تسقى بها
أمر فى الحلـــق من العلقم

ويستمتع اصحاب الثورة الثانية بالحكم ماشاء الله أن يستمتعوا حتى تتمكن منهم عصابة اخرى فتثب عليهم وثبة الاسد الذى كان مريضا فجاءه الثعلب بالحمار للمـــرة الثانية فلم يفلته وهكذا دواليك ٠

فبشر الشعب الذى اصيب بمثل هذه الثورات بعذاب أليم ، ومن يمدح مثلها او يتمنى حدوثها فى وطنه فهو غاش لقومه ساع فى هلاكهم ٠

الجمهـــورية

اما الذين يمدحون الجمهورية لذاتها فليسوا اقل ضلالا من الذين يمدحون الثورة لذاتها بقطع النظر عن العواقب والنتائج، اذا كان الشعب جاهلا منحطا فى اخلاقه لسيس له رابطة متينة تربط بين افراده وطوائفه٠قد ساد فيه الغش وقل فيـــه الاخلاص وخربت الذمم فانه لايصلح للحياة السعيدة لا بالنظام الملكى ولا بالنظام الجمهـــــورى لان الرؤساء الذين كانوا يحكمونه فى العهد الملكى هم انفسهم الذين

يحكمونه فى العهد الجمهورى ولايعقل أن يكونوا فى العهد الملكى ذئابا يعيثون فسادا ثم ينقلبوا فى العهد الجمهورى ملائكة ابرارا • وانا أظن أن الملكية اذا كانت ثابتة الاساس قد اذعن لها الشعب وانخرط فى سلكها منذ زمان طويل ، وكان ذلك الشعب منحطا فى اخلاقه جاهلا أن الملكية خير له من الجمهورية لان الملك يجمع كلمته ويوحد صفوفه ، ويحفظ اهله من أن يصيروا فوضى كغنم بلا راع •

اما اذا كان الشعب رشيدا وكان رؤساؤه ذوى علم وحكمة ونزاهة واخلاص واخلاق سامية فانهم ينجحون ، سواء أصاروا على النظام الملكى ام على النظام الجمهورى والواقع يشهد بهذا • فبريطانية بنظامها الملكى تتمتع بسعادة اجتماعية ورفاهية واستقرار ، تحسدها عليه كثير من الجمهوريات ، ولايفكر احد من حكمائها وقادتها باستبدال النظام الملكى والانتقال الى جمهورية وهذا الرضا والاطمئنان لايختص بالبريطانيين فقط ، بل هناك شعوب راقية سعيدة فى حياتها ، ديمقراطية فى سلوكها حرة فى تصرفاتها قد ربطت مصيرها بهذه الدولة الملكية شعوب (كمونويلث) ككندا واستراليا ونيوزيلندا وغيرها ممن يدور فى فلكها ، وهناك ممالك اخرى قدذكرتها من قبل فى غاية الاستقرار والرفاهية

ومن زعم أن الجمهورية مرغوبة لذاتها او ضرورية لكل شعب فانزعمه باطل لايثبت امام النقد الا كما يثبت الثلج فى السهول اذا اشرقت عليه شمس الربيع • اذا فالشأن كل الشأن ان يكون رؤساء الشعب علماء حكاما ، مخلصين صالحين فعلى أى نظام كانوا فانهم يقودون سفينة شعبهم الى شاطىء السلامة ونحن نرى الشعوب المختلفة فى نظام الحكم متعاونة متصافية بغاية الاخلاص كبريطانيا والولايات المتحدة الامريكية فقد مضى على تعاونهما فى السلم والحرب زمن طويل ، ولم تحاول احداهما ان تقلب الاخرى الى نظامها •

اذا فهذه الحزازات التى توجد فى نفوس الحكومات العربية الجمهورية ومايعتريها من الاشمئزاز والكراهية للنظام الملكى حتى ربمانها تسعى فى اسقاطه وتبالغ فى شتمه وتصفه بالرجعية كل ذلك خطأ فاحش لم يعالجه طبيب ولا راق ، والاستمرار فيه يتنافى مع المصلحة العامة لتلك الشعوب ويفضى الى عواقب وخيمة •

الديمقراطية

الاسلام نظام كفيل بسعادة كل من تمسك به من جماعات وافراد ودول ولايحتاج ان يستعير من غيره شيئا وهو لايتفق مع نظام رأس المال ولامع الشيوعية ولا مع الاشتراكيات بانواعها •

وقد سبق الى كل خير يوجد فى هذه النظم وتجنب كل شبر فيها ،

فاذا وصفت الامـة الاسلامية بانها دمقراطية فقد جهلتها وجهلت عليها ، فالاسلام مبنى على العـدل والاحسان وفيهما سعادة البشر أجمعين • اما دعاة الديمقراطية فى هـذا الزمان فانهم يصفونها بان يحكـم الشعب نفسه بنفسه بواسطة الانتخاب العام فكل جماعة من الناس تختـار نائبا يمثلها اوينوب عنها فى مجلس يسمى البرلمان وهذا المجلس هو الذى يختار رئيس الـوزراء ويعينه ، ورئيس الوزراء يختار وزراءه من اولئك النواب او من غيرهم بموافقة المجلس ، وكل فرد من أفراد الشعب له الحـق ان ينتقد النواب والوزراء ورئيسهم ،فى حدود القانون الـذى يمنع التعدى والظلم وهـذا القانون يضعه علماء اختصاصيون ويقره المجلس •

قالوا : وهـذا أرقى ماوصل اليه العقل البشرى فى الحـرية والمساواة فكل من وقع عليه ظلـم يستطيع ان يدفعه عنه بواسطة نائبه ، وكذلك من تعسر عليه الوصول الى حق يستعين بنائبه على الوصول اليـه • وحرية الاعتقاد والانتقاد فى ضمـن القانون وابداء الرأى وسائر الحريات مكفولة فلا يعاقب احد بحبس او غرامة الا اذا خالف القانون المتفق عليه وتوزع الحقوق والواجبات بالتساوى ، فلا يعفى من الواجبـات احد كيف ماكان مركزه فيكون كل فرد آمنا مطمئنا على نيل حقوقه لايحتاج الى تملق ولاتعلق فلا يخاف الانسان الا مما قدمت يداه،

ومع هذا التحرى كله فقد يقع الغش فى الانتخاب فان مالك المزرعة ومالك المعمل اذا رشح نفسه للنيابة يشعر الفلاحون والمزارعون بان من اللياقة ان ينتخبوا مـالك مزرعتهم ويشعر العمال كذلك انه ينبغى عليهم اويجب عليهم ان ينتخبوا مالك معملهم فيختل ميزان المساواة •

وهناك سبب آخر لامتعاض الناس فى البلدان (الدمقراطية) وهو وجود الاحزاب المختلفة كالمحافظين والعمال والاحرار فالمحافظون يـرون اعطاء الحرية أفراد الشعب كيف ما كانت كسكك الحـديد والمعادن والمصانع الكبرى ويقولون ان ذلك هو الاصلح لشعبهم ليتنافس افراده وجماعاته ، كالشركات مثلا فى العـمل لتكثير المنتوجات واستثمار البلاد واستخراج كنوزها ، وبذلك يقـع الازدهار والتقدم فى جميـع الميادين ويقول العمال الاشتراكيون : ان البلاد كلها بثمراتها ومعادنهـا وكنوزها ملك للشعب كله ، فيجب ان تكون منابع الثروة الكبرى فى يد الحكومة لئلا يستولى عليها افراد قليلون يحتكرونها ويستحوذون على الارزاق خصوصا مع اباحة الربا فتصير جمـاهير الشعب الكادحة التى بعرق جبينها استخرجت تلك الأموال والارزاق خـدما وعبيدا لفئة قليلـة من ذوى رؤوس الاموال المحتكرين •

وتتهم الاحزاب بعضها بعضا بعدم النزاهة فى الانتخاب ولكن لما كانت

الاحزاب متعددة يكـــون من السهل على كل حـــزب ان يكتشف ويفضح دسائس الحزب الاخر فيزول الحيف ويقع التوازن • فحزب العمال يبذل جهده فى تأميم المنابع الكبرى ،وحزب المحافظين يبذل جهده فى ترك الناس أحرارا فى المضاربة والاستثمار وكل منهما يرى ان وجهته أفضل لشعبه• وقد ساروا على هذا منذ زمان طويل ورضوا به واعتقدوا انه أفضل مايقدر البشر عليه من العـــدالة • وهناك استعمال اخــر للديمقراطية وهو استعمالها لفظـــا مرادفا لاشتراكية الشيوعية ، وهذا الاستعمـــال دعاية مجردة غير معقولة لان كل شعب يحكم بنظام الحزب الواحد لايمكن ان يكون ديمقراطيا وحتى ذلك الحزب الواحد لم ينتخبه الشعب وانمـــا هو طائفة تسلطت عليه بالقهر والغلبة وأسرته واستعبدته شر استعباد وصارت تتكلم باسمه ، وتستخدمه بلا رحـــمة ولا شفقة وقد سبته جميـــع الحريات : حرية الكلام ، حرية الاعتقاد وحرية العمل وحـــرية الاضراب عن العمل وحرية المطالبة بزيـــادة الاجور ، او بزيادة الطعام او الكسوة او التدفئة، وقد تقدمت الاشـــارة الى بعض ما تقاسيه هـــذه الشعـــوب المخنوقة المستعمرة شر استعمار •

الحـرية

ومن العجب ان هؤلاء الجبابرة الذين يحكمون شعوبهم بالحديدوالنار حكما كله دماء ودموع ، وقهر وكبت، واذلال واهـــانة ، مع ذلك يتغنون بالديمقراطية والحـرية وهم يعلمون انهم ابعد النـــاس عن الحرية والديمقراطية ، ولكن كـما قيل فى المثل وهو مأخوذ من الحديث الصحيح:
ــ اذا لم تستحى فاصنع ماشئت ــ
وعليه يقـــال : اذا لم تستحى فقل ماشئت • ونظمه بعضهم فقال واجاد.

اذا لم تخشـــى عاقبة الليالى
ولم تستحى فاصنـــع ماتشاء
فلا واللـــه ما فى العيش خير
ولا الدنيا اذا ذهـــب الحياء

ومن أراد زيادة الاطلاع على ماكان عليه الاوروبيون الى زمان قريب جدا من الانحطاط والهمجية وما كان عليه المسلمون فى الانـــدلس فى زمن انحطاط الاوروبيين قرونا طويلة من العلم والحضارة والـــرقى الحسى والمعنوى فليقرأ كتاب (مدنية العرب فى الاندلس) الذى ترجمه كاتب هذه المحاضرة بالعربية لمـــؤلفه الذائع الصيت ــ جوزيف مكيب ــ ولاتزال عندى منه بضع مئات ، هذا مابدا لى ايراده فى بيـــان مايسمى بالرجعية والتقدم كتبته تبصـــرة لاخواننـــا المسلمين الـــذين لايعرفون ماينطوى تحت هتين الكلمتيـــن من الغش والتضليل •

والله يقول الحـــق وهو يهدى السبيل •

استـــدراك

لما فرغ القارىء من قراءة محاضرتى قام صاحب الفضيلة الاستاذ المرشد العربى الموفق الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز حفظه الله فاشار بتلطفه المعهود وادبه السامى الى انه قد يفهم مما قلته فى عموم المسلمين الذين يعملون السيئات وغيرها الحكم بغير ماانزل الله وقد عذبهم الله فى الدنيا كما اوعدهم فى كتابه العزيز وسيعذبهم الله فى الاخرة اكثر مما عذبهم فى الدنيا ، ولم استثنى فى ذلك شعبا من الشعوب ولا دولة من الدول حتى كـــانهم متساوون فى الجريمة ٠ وكان ينبغى لى ان استثنى من قام منهم بشىء من الواجب على قدر استطاعته وهذا حـــق فان الشعب السعودى والمملكة السعودية بقيادة ملكها الامام المصلح جلالة الملك فيصل والائمة السابقين من أسلافه ورحمهم الله لم يزالوا يحكمون شـــريعة الله ويتخذون القرآن اماما والسنة سراجا يضيئان لهم ظلمات الحياة ويجنبان مملكتهم ارتكاب الموبقـات وقد عجل الله لهم المثوبة فى هذه الحياة الدنيا بانتشار الامـن على الانفس والاموال والاعراض فى بلادهم الى حد لايوجد له نظير فى الدنيا حتى انى لما كنت فى ألمانيا قبل الحرب وقبل تقسيمها وهى فى عنفوان قوتها وحدثت الناس هناك بالامن الذى يتمتع به سكان المملكة السعودية تفصيلا سألونى اين يتخرج رجال شرطة هـــذه المملكة ورؤساؤها فقلت يتخرجون فى مدرسة القرآن فى المسجد فأبدوا شكهم فى ماأخبرتهم به وقالوا لايوجد فى الدنيا أحسن من الشرطة الالمانية ومع ذلك لايوجد عندنا مثل ماذكرت من الامن وهذا الثواب المعجل فى الدنيا يدل دلالة قطعية على أن الله الذى لايخلف الميعاد سيثيب امـــام هـذه الدولة واسلافه ورجـــــال دولته واعوانه المخلصين فى الدار الاخرة اعظم مما أثابهم فى الدنيا كما قـال تعالى فى سورة النحل ٣٠ (للذين احسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الاخرة خير ولنعم دار المتقين جنات عدن يدخلونها تجرى من تحتهـــا الانهار لهم فيها مايشاءون كذلك يجزى الله المتقين)٠ وأشهد بالله انى لما دعانى سموالامير مساعد ابن عبدالرحمن الى الحج سنة سبع وخمسين بتاريخ النصارى اظنه يوافق سنة ست وسبعين للهجرة ، كنت راكبا فى طائرة سويسرية من بغداد الى الظهران وكانت المضيفة من القسم المتكلم بالالمـــانية من سويسرا فاخذت تدور على ركـــاب الطائرة لما أرادت ان تـدخل فى سماء المملكة العربية السعودية وتقول لهم لايطلب احد منكم خمرا حتى نجتـــاز المملكة السعودية ولايجوز لاحـــد منكم ان يمسك زجاجة خمر ولو فارغة فان الحكومة السعودية تعاقبنا على ذلك وتكلمت معى باللغــة الالمانية لانها عرفت من قبل انى اتكلم بها وشرحت لى خوف قائد الطائرة وجميع الموظفين

من رجال المملـــكة السعودية وانهم لايتساهلون مع اى طائرة يجدون فيها شرابا مسكرا ظاهرا قالت فنحن نخبىء جميع الاشربة المسكرة حتى القوارير الفارغة الى ان نخرج من هذه المملكة فاخبرتها انى مسلـــــم وان عقيدتى والحمد لله مطابقة لهذا الحكم وانا احمد الله على وجود مملكة فى الدنيا تنفذ هذا الحكم .

ونحن نشاهد شريعة القرآن تنفذ على رؤوس الاشهاد ، فى هذه المملكة الفذة فيقتل القاتل المتعمد ويرجم من الزناة من يستحق الرجم ويجلد من يستحق الجلد مع التغريب وتقطع يد السارق ويقام الحـــــد على الشارب ولايحكم حاكم فى جميع ارجائه الا بشريعة القرآن فكيف يستطيع مسلم أو منصف ان يسوى بينها وبين من يحل ماحرم الله ويحكم بغير ماانزل الله ، نعم ان اشبـــــاه القردة من المقلدين لمن يسمـــونهم بالمستعمرين ويسلقونهم بالسنة حداد ليل نهارفي اذاعاتهم وصحفهم هؤلاء القردة يسمون شريعة الله ورسوله التى سار عليها المسلمون حين كانوا سادة العالم ، يسمونها رجعية ويسمون المنفذين لها ابدهم الله بروح منه ــ رجعيين ــ وقد تقدم جوابهم أعلاه فى هذه المحاضرة بما يلقمهم الاحجار ، ولايدع لهم مجالا للفرار ،وانى لاشكر صاحب الفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز على هذا التنبيه الذى تفضل به ،فلا زال مصدرا لكل خير وكمال .